جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم التاريخ

مقياس تاريخ المشرق الإسلامي ق2-8هـ/8-14م

د. بلال ساحلي

البريد الالكتروني: b.sahli@univ-dbkm.dz

المحاضرة الثالثة السداسي الثاني:

3- المجتمع المشرقي في العهد الفاطمي:

3-1 الطوائف الدينية والعرقية في مصر الفاطمية:

أ- السنة والشيعة:

لما دخل الفاطميون إلى مصر يمكن تمييز عديد الطوائف المكونة لنسيج المجتمع المصري إلا أن السواد الأعظم من المجتمع كان يمثله أهل السنة، من حيث الكثرة العددية والسيادة السياسية، وهذا راجع بالأساس إلى عوامل دينية وتاريخية وثقافية كثيرة، كما أن مصر كانت دائما بعيدة عن التأثر بموجات التشيع التي استهدفتها منذ العهد الأموي وأوائل العهد العباسي، لكن مع بسط الفاطميين نفوذهم على مصر أصبحت الأقلية الشيعية تتنامى في المجتمع شيئا فشيئاً، بفضل جهود الدعاة الممهدين للزحف الفاطمي، وكذلك مساعي الخلفاء الفاطميين في نشر التشيع وفرضه على عامة الناس، وأصبح التشييع علنيا بعد أن كان سرياً، فزاد نفوذ الشيعة مما خلق مجتمعاً طائفياً تتحكم فيه الأقلية الشيعية على الأغلبية السنية .

ب- أهل الذمة من النصارى واليهود:

تعتبر فئة أهل الذمة من الفئات المنتشرة في المجتمع الإسلامي في مختلف عصوره الزمنية ونواحيه الجغرافية، لأن الإسلام ضمن لهذه الفئة الأمن والعيش بسلام وسط المجتمع المسلم مع هامشٍ كبيرٍ من الحرية الدينية، وهؤلاء النصارى واليهود كانوا متواجدين في مصر منذ العهود القديمة لفترة ما قبل الإسلام، ثم مع الفتح أصبحوا خاضعين لما يعرف بالشروط العمرية، إلا أن الفاطميين حاولوا حمل هذه الفئة على اعتناق المذهب الإسماعيلي

تحت ضغوطات اكراهية، أو عبر استمالتهم بمنحهم المناصب والمراتب ضمن أجهزة ومؤسسات الدولة الفاطمية، كما استعان بهم الفاطميين في الجيش.

ويعتبر الأقباط أهم الفئات الذمية التي وجدها الفاطميون في مصر لذلك اعتمد عليهم جوهر الصقلي في الإدارة، وقد بلغ نفوذ أهل الذمة ذروته في عهد العزيز بالله 365-386هـ/975-996م الذي تزوج جارية رومية نصرانية وعرف بتساهله مع أهل الذمة لذلك بسطوا نفوذهم على أغلب الوظائف الإدارية بما في ذلك الوزارة التي تقلدها النصارى .

ويبدوا أن بعض الخلفاء الفاطميين كانوا متساهلين مع أهل الذمة فكانت للنصارى حرية إحياء أعيادهم وشعائرهم الدينية ففي سنة 415هـ/1024م احتفلوا بعيد الفصح على الملأ وتعاطوا الخمور .

ج- العناصر البربرية المغاربية:

عندما زحف جيش جوهر الصقلي إلى مصر كان قوامه من القبائل البربرية أو المغاربية، مثل كتامة وصنهاجة التي استقرت معه في مصر، وظلت محافظة على مذهبها الشيعي، وقد أسست هذه القبائل شوارع في القاهرة تحمل أسماء قبائلها مثل: "حارة كتامة" جنوب الجامع الأزهر، وبرزت منهم شخصيات لها تأثير كبير مثل القائد أبو محمد الحسن بن عمار المغربي الذي قام في سنة 321هـ/982م بإخضاع ثورة اهل تنسينا ضد الحكم الفاطمي، ثم بقدوم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قدمت معه المزيد من دفعات فأصبحت تكتلا وعنصراً فاعلاً يحضى بالكثير من المزايا حتى على حساب أهل البلد، خاصة المنتمين إلى قبيلة كتامة، التي يعود لها الفضل في تأسيس وبروز الدولة الفاطمية، وعلى هذا الأساس فإن هذه الفئة كانت تعتبر نفسها صاحبة الأولوية في مقدرات الدولة، حتى أنهم حاولوا في بادئ الأمر الاستحواذ على المواضع المهمة في مصر فوجدوا مقاومة من المصريين واضطر جوهر الصقلي إلى توقيف المغاربة وتعويض المصريين، كما أنهم مارسوا ضغوطات على الخلفاء الفاطميين من أجل الحصول على المناصب والهدايا، حيث ثاروا في منطقة صحراء المقابر ونهبوا ممتلكات الناس فأنكر عليهم الخليفة المعز وقبض على جماعة منهم، ومع ذلك لم يستطع الفاطميون التخلي عنهم واعتمدوا عليهم بشكل كبيير في مناصب الدولة بسبب ولائهم .

وقد حدث تقارب بين هذه الفئة والشيعة المصريين بسبب تقاسم المصالح على حساب السنة، مما كان يؤدي أحياناً كثيرة إلى معارك واعتداءات بين الطرفين، ومن صور التقارب مساعدة المغاربة للمصريين في اخماد حريق الفسطاط 410هـ/1020م الذي دبره العبيد، ثم تفشى التنافس بين المغاربة والمصريين الشيعة فحتى هذه الفئة الأخيرة لم يشفع لها تشيعها في وجه النفوذ الكبير الذي كان يتمتع به المغاربة .

وفي عهد العزيز بالله (365-386هـ/975-996م) خشي من تنامي نفوذ المغاربة فاتخذ الجنود الأتراك مثلما فعل العباسيون، وبوفاته احتج المغاربة ورفضوا مبايعة الحاكم بأمر الله (386-411هـ/996-1021م) وطالبوا بإبعاد الأتراك، فحقق لهم الحاكم مطالبهم، لكن ابن عمار زعيم المغاربة تمادى في نهب أموال الدولة وقطع أرزاق منافسيه الأتراك فحدث صدام بين الطائفتين انتهى بهروب ابن عمار إلى الفسطاط ثم قتل مع كثير من المغاربة فتغيرت أحوالهم في الدولة منذ تلك اللحظة وأصبح سياسة الحاكم إبعادهم عن مفاصل الدولة.

د- فئة الأتراك:

يرجع التواجد التركي في مصر إلى عهد الدولة الطولونية، لكن لم يكن لهم شأن كبير في دوائر الدولة، ثم تراجع تواجدهم اكثر لما تقلد الوزارة أبو محمد الحسن بن عمار أحد شيوخ كتامة الذي بالغ في تكريم المغاربة ومحاباتهم على حساب باقي الفئات وبخاصة الأتراك، الذين اجتهد في انقاص رواتبهم وإضعاف شأنهم، واستمر الوضع على ذلك الحال إلى غاية ظهور برجوان التركي الذي أصبح ينافس ابن عمار على الزعامة واجتهد للوصول إلى الوزارة فنجح في ذلك بعد إقناعه للخليفة الفاطمي القائم بأمر الله بالاعتماد أكثر على الأتراك والتخلي عن المغاربة، وأمام هذه التطورات اضطر ابن عمار زعيم المغاربة إلى الهروب، وحلَّ برجوان محله.

وأول من استخدم الأتراك في الجيش الفاطمي هو العزيز بالله (365-386هـ/975-996م) بعد أن استقدمهم من الشام وجعل لهم حارة مع الديلم بالقرب من الجامع الأزهر، وبفضل الصفات العسكرية في الأتراك نجحوا في وقت وجيز في الاستحواذ على المناصب القيادية خاصة أن العزيز جعلهم وسيلة لدعم سلطته على حساب المغاربة فجعل أمر جميع القادة الكتاميين خاضعاً لسلطة القائد التركي افتكين.

بعد تنامي نفوذهم حاول الخليفة الظاهر بإعزاز دين الله (411-427هـ/1021-1036م) ابعادهم وتقريب السودان إلا أن الأتراك نجحوا في طرد السودانيين إلى الصعيد بعد اقتتال بينهم، وهو ما فتح الباب للأتراك من أجل الاستبداد بالدولة مثلما فعلوا مع العباسيين، بعد أن عظم أمر زعيمهم ناصر الدولة بن حمدان(465هـ /1074 م) الذي استبد بالأمور، وحجز الخليفة الذي من بعده المستنصر بالله (427-487هـ/1036-1094م) بعد ان أفرغوا خزينة الدولة، وتلقب ناصر الدولة ابن حمدان بأمير الجيوش .

ولأن ولاء الأتراك كان للمنفعة والمصلحة الخاصة فإنهم انقسموا ودخلوا في صراعات فيما بينهم ثم تآمروا على زعيمهم ناصر الدولة وقتلوه .

ذ- فئة السودان أو الزنوج أصحاب البشرة السوداء:

كان كافور الاخشيدي يعتمد بشكل كبير على أبناء جلدته من السودان، وكان ذلك سبباً في تواجدهم بمصر، ثم وفي أثناء حكم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله استعان أيضا بالسودان بعد أن سئم من مضايقات الأتراك فأراد التقليل من شأنهم، مما كان سبباً في كثرة السودان وأصبحوا يشكلون تياراً يساند الخليفة الحاكم، فاستعان بهم في حريق الفسطاط، ثم ازدادت شوكتهم في عهد الخليفة الظاهر لدين الله الذي تزوج امرأة سودانية، كانت أَمَةً في بيت أبي سعيد التستري اليهودي، ثم بعد ذلك تفاقم خطر السودان في أيام المستنصر بالله، بعد أن بلغ عددهم حوالي خمسين ألفاً، فوقع الخلاف بينهم وبين الأتراك انتهى بتشتيت السودان في مناطق متفرقة من البلاد.

هـ- الأرمن:

هذه الفئة لم يكن لها شأن كبير مثل المغاربة والأتراك أو السودانيين لأنها تعتبر من الأقليات، حيث كان أول استقدام للأتراك على يد أمير الجيوش بدر الجمالي(ت487هـ/1094م) الذي كان واليا في دمشق واصطحب معه بعض الأفراد الأرمن كجنود في جيشه عند استدعائه من طرف الخليفة الفاطمي المستنصر بالله بالله (427-487هـ/1036-1094م) الذي استنجد به لإصلاح الأوضاع بعد الضعف الذي أصاب الدولة الفاطمية بسبب خطر الأتراك، ثم بعد ذلك وفي عهد الحافظ لدين الله (525-544هـ/1130-1149م) نجح بعض الأرمن من الوصول إلى الوزارة مثل بهرام الأرمني، الذي استقطب عدداً من أبناء جلدته إلى مصر فاشتغلوا في الزراعة .

هؤلاء الأرمن لم يحترموا العهود والمواثيق فقاموا ببناء الكنائس والأديرة فقام المسلمون برفع شكوى للخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله لكنه لم يتحرك، فاستنجدوا بأبو الفتح رضوان ابن الوحشي الذي دخل في معارك مع الأرمن انتهت بانتصاره عليهم وفرار زعيمهم الوزير بهرام الأرمني .